المحاضرة التاسعة: حسن التخلص

حسن التخلص من المصطلحات المعروفة في البلاغةن وقد ذكره البلاغيون وكذلك المفسرون.

تعريفه – أ–لغة:"من خَلَصَ الشيءُ يَخلُصُ خُلوصا وخَلاصا، إذا كان قد نَشِبَ ثم نجا وسَلِمَ"[1]

و خلَّصَ الله فلانا، نجاه بعد أن كان نَشِبَ كأخلصه فتخلص كما يتخلص الغَزْلُ إذا التبس"[2]

ب–اصطلاحا:هو حسن الانتقال كن غرض إلى غرض آخر في القصيدة[3]

وجاء في المعجم المفصل في الأدب لمحمد التونجي ص365 : "حسن التخلص هو الانتقال مما ابتدئ به الكلام إلى الغرض المقصود برابطة تجعل المعاني آخذا بعضها برقاب بعض بحيث لا يشعر السامع بالانتقال من نسيب إلى مديح أو غيره. وحسن التخلص مقدرة لا يؤتاها كل شاعر، وميزة يختص بها الشعراء الأوائل، لأنهم يسعون إلى عدم قطع صلة الحديث"[4].

حسن التخلص في النقد العربي القديم

يعرفه ابن رشيق بأنه "الانتقال من غرض في القصيدة إلى غرض آخر فيها، كأن يخرج الشاعر مثلا من النسيب الذي بدأ به إلى المديح أو غيره، بلطف مع رعاية الملاءمة بينهما، بحيث لا يشعر السامع بالانتقال من المعنى الأول إلا وقد وقع في الثاني، لشدة الممازجة والالتئام والانسجام بينهما، حتى كأنما أفرغا في قالب واحد"[5].

وقد أوجبوا في حسن التخلص أبعادا نفسية وفنية، منها: الترفق في الانتقال، والعناية بمطلع الغرض الجديد. ويقصد بالترفق في الانتقال النقلة الهادئة من المقدمة إلى الغرض التالي في القصيدة، فذهبوا إلى أن على الشاعر أن يكون بارعا في هذا الانتقال، لطيفا منسجما لا طفرة فيه[6]. يقول ابن الأثير: "والذي يحافظ على وحدة النص وتماسكه وعدم إشعار المتلقي بوجود فجوة

---

[1]– ابن منظور، لسان العرب، مادة: خلص، م 7، ص26.

[2]– الزبيدي، تاج العروس في جواهر القاموس، خلص، م17، ص563.

[3] –المجمع العلمي العراقي، معجم المصطلحات البلاغية، بغداد، ج1، 1983. ص393.

[4]– محمد التونجي: المعجم المفصل في الأدب، ص 365.

[5]– ابن رشيق، العمدة في اسن الشعر وآدابه ونقده، ج1، ص156.

[6]– المرزباني 54. وابن سنان 259. وحازم 321. وابن الأثير، ج3، ص121.. عن: محمد عزام 141.

فيه، إنما هو الاتصال المعنوي بين أجزاء النص، في مواضع الانتقال، والخروج من الأبيات أو الفقرات اللاحقة والسابقة، وليس الاتصال اللفظي الشكلي"[1].

ولكي يحافظ الشاعر في تخلصه الرفيق على تماسك النص، والنقلة الهادئة فإنه يحتال في ذلك. ومن طرقهم أن يجعل الشاعر معنى البيت السابق سببا لمعنى البيت اللاحق. وقد يعتمد الشعراء الاستطراد كحيلة قائمة على التمويه والإبهام، ويؤكد ابن رشيق هذه الوحدة بين الغرضين بقوله: "ومن حكم النسيب الذي يفتح به الشاعر كلامه أن يكون ممزوجا بما بعده من مدح أو ذم، متصلا به غير منفصل عنه، فإن القصيدة مثلها مثل خلق الإنسان في اتصال بعض أعضائه ببعض"[2].

مصطلحات ذات صلة بحسن التخلص

وردت في كتب البلاغة مصطلحات ذات صلة بحسن التخلص مع اختلاف يسير في المفهوم الدقيق للمصطلح منها:

1-الاستطراد: وقد وردت فيه عدة تعريفات، وقيل عنه "أن يُتطرق من كلام إلى كلام آخر بوجه يصل ما بينهما، ويكون الكلام الثاني هو المقصود، كخروج الشاعر من السّبِّ إلى المدح بمعنى يتعلق بالطرفين مع أنه قصد المدح"[3].

2-الاقتضاب: قيل عنه "أنه ضد التخلص وذلك أن يقطع الشاعر كلامه الذي هو فيه ويستأنف كلاما آخر غيره من مديح أو هجاء أو غير ذلك ولا يكون للثاني علاقة بالأول"[4].

3-فصل الخطاب: وردت هذه العبارة في قوله تعالى في وصف داوود عليه السلام: " وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب" سورة ص: 20.

قال الزمخشري "فصل الخطاب: البيِّن من الكلام الملخص الذي يتبينه من يخاطب به لا يلتبس عليه"[5].

---

[1]- ابن الأثير المثل السائر، ج3، ص121. عن محمد عزام: ص141.

[2]- ابن رشيق: العمدة، ج2، ص94.

[3] -محمد بن أحمد بن محمد الغرناطي الكلبي، التسهيل في علوم التنزيل، ج1، ص 13-14.

[4]- ابن الأثير، المثل السائر، ج2، ص244.

[5]- الزمخشري، الكشاف، ج4، ص82.

4- أسلوب الحكيم: وهو" تلقي المخاطب بغير ما يترقبه، إما بترك سؤاله والإجابة عن سؤال لم يسأله، وإما بحمل كلامه على غير ما كان يقصد، إشارة إلى أنه كان ينبغي أن يسأل هذا السؤال أو يقصد هذا المعنى"[1].

نماذج تطبيقية

جاء في المعجم المفصل في اللغة والأدب، في مصطلح براعة التخلص :"هي أن يحسن الشاعر أو الكاتب الانتقال من موضوع إلى موضوع. وهي صفة حسنة في الشعر، وتسمى حسن التخلص وحسن الانتقال... وكان الشعراء يكتفون بقولهم (عُدْ عن ذا) أو (دَعْ ذا) أو (عُدْ عن ذا)[2] كما في قول زهير وقد فقد الأمل بلقاء الأحبة وعلم أن فراقهم أمر مؤكد عندما سمع نعيق غراب البين، فقال:

فعد عما ترى إذ فات مطلبه أمسى بذاك غراب البين قد نعقا[3]

فقد انتقل من الغزل إلى غرضه المقصود بقوله: "عُدْ عما ترى".

والأعشى من الشعراء الجاهليين الذين برعوا في التخلص من موضوع والانتقال إلى آخر. فحينما أراد الانتقال من مديح الأسود بن منذر ذكر أن الناقة خاطبته وشكت له هزالها وتعبها، فأجابها:

لا تشتكي إليّ وانتجعي الأسـ ود أهل الندى وأهل الفعال[4]

ومن أمثلته قول أبي نواس يمدح الخصيب

تقول التي من بيتها خف مركبي عزيز علينا أن نراك تسـير

أما دون مصر للغنى متطـلب بلى إن أسباب الغنى لكـثير

فقلت لها و استعجلتـها بوادر جرت فجرى في إثرهن عبـير

ذريني أكثّر حاسديك برحـلة إلى بلد فيه الخصيب أمـير

إذا لم تزر أرض الخصيبِ ركابنا فأيَّ فتى بعد الخصيب تزور

فما جازه جود ولا حل دونـه ولكن يصير الجود حيث يصير

فتى يشتري حسن الثناء بمـاله ويعـلم أن الدائرات تدور

---

[1]- عبد العزيز عتيق، علم البديع، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان ، 1405هـ- 1985 ص 182.

[2]- محمد التونجي: المعجم المفصل في الأدب، ص180.

[3]- ديوان زهير بن أبي سلمى، ص 69.

[4]- السابق، ص 180.

ولم تر عيني سؤددا مثل سؤدد يحل أبو نصر بـه ويســـــــير

وإني جدير إذ بلغتك بالمـــــنى وأنت بما أملت منك جديـــــر

فإن تولـني منك الجميل فأهلـه وإلا فإني عــاذر وشكـــــــــور

نلاحظ أن الشاعر انتقل بطريقة رشيقة سريعة من الغزل والنسيب إلى المديح في بيت شعري واحد وهو البيت الرابع:

ذريني أكثر حاسديك برحالة إلى بلد فيه الخصيب أمير

ومن حسن التخلص أيضًا قول البحتري في مدح المتوكل:

كأنها حين لجت في تدفقها يد الخليفة لما سال واديها

وقد انتقل من وصف البركة إلى المدح انتقالًا حسنًا متلائمًا، حيث شبه تدفق مياهها وسيلانه بتدفق يد الخليفة بالعطاء والبذل.

ملاحظة: ينظر مصطلح التخلص (الكثير من الأمثلة) في: عيار الشعر، لابن طباطبا العلوي ص111.